بوادر شرح الشعر

الدكتور فخر الدين قباوة

كان للبيئة المحدودة التي نشأ فيها الشعر الجاهلي وترعرع ، ولتشابه الثقافة والتفكير والتعبير في أصقاع الجزيرة العربية آنذاك ، ولصفاء القريحة العربية ، وحِدّة البديهة الفطرية ، أن تلقّى عرب الجاهلية شعرهم بالرواية صافياً سائغاً ، يفهمون مراميه وإيحاءاته وظلاله ، دون حاجة إلى صُوى مصطنعة ، تفسر غريباً ، أو توضح غامضاً ، أو تشرح ملتبساً . هذا إذا كانت المفردات دقيقة الدلالة ، والملابسات الاجتماعية والفنية للشعر أو لتجارب الشاعر معروفة لدى الجمهور ، لا تحدّها بيئة محليّة ، أو خبرة ذاتية . فإذا كان في تلك المفردات أو الملابسات ما هو وليد حدث محليّ ، أو تجربة خاصة افتقرت بعض أجزاء الشعر إلى معالم ، توجّه معانيها ، وتفتح مغلقها ، وتوضح ما رمى إليه الشاعر .

فعَبيد راوية الأعشى مثلًا يستوقفه قول الأعشى :

ومُدامةٍ ممّا تُعتّقُ بابلٌ كَدَمِ الذّبيحِ ، سَلَبْتُها جِرْيالها

ويستغلق عليه معنى « سلبتها جريالها » ، فيعود إلى الشاعر نفسه ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يسأله التفسير ؛ قال ابن قتيبة[١] : « حدثني الرياشي عن مؤرّج عن شعبة عن سماك عن عبيد راوية الأعشى قال : قلت للأعشى : ماذا أردتَ بقولك :

ومُدامةٍ ممّا تُعتّقُ بابل كدَمِ الذّبيحِ ، سَلَبتُها جِريالها

قال : شربتُها حمراءَ ، وبُلتُها بيضاءَ » .

إن بيت الأعشى لم يكن فيه كلمة غريبة على عبيد . إنما الغريب عليه حقاً هو التركيب الفنيّ ، الذي صوّر فيه الأعشى تجربة ذاتية ، أعني ذلك التعبير الخيالي الذي يستمد قوته ووضوحه من الخبرة والتجربة أكثر ممّا يستمدها من معاني المفردات .

وهاك مثالاً آخر من هذا القبيل : كان عديّ بن أبي الزغباء يقاتل المشركين في يوم بدرٍ وهو ينشد :

أنا عَدِيٌّ ، والسِّحْلْ أمشي بها مَشْيَ الفَحْلْ

فبلغ الرسولَ ﷺ بيته هذا ، فجمع المسلمين بعد النصر ، ونادى : مَنْ عديّ ؟ فقال عديّ بن أبي الزغباء : أنا ، يا رسول الله ، عديّ . فقال : وما السِّحلُ ؟ قال : الدّرع . فقال النبي عليه السلام : نِعْمَ العديُّ عديّ بن أبي الزّغباء[٢] .

وثمة روايات أخرى ، تعرض نماذج من تفسير الشعر القديم . ولعل أقدمها ما نُسب إلى سلمى بنت مهلهل . فقد روي[٣] أن بكراً وتغلب

---

(١) الشعر والشعراء ص ٢١٥ – ٢١٦ ، وانظر المعرب ص ١٥١ ، واللسان ١٣ : ١١٤

(٢) مغازي رسول الله ص ٦٠ ، وشرح نهج البلاغة ٣ : ٣٣٥

(٣) السمط ص ٢٦ – ٢٧ ، وكتاب البسوس ص ١١٦ ، والخزانة ١ : ٣٠٤ ، وانظر طبقات الشافعية ١ : ١٤٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لما سئمت حرب البسوس اتخذ مهلهل عبدين يغير بهما على بني بكر . ثم سئم العبدان ذلك الصنيع ، وأجمعا على قتل سيدهما . فلما تيقّن مهلهل أنهما قاتلاه قال : إن كنتما ، لا بدّ ، فاعلَيْنِ فأبلغا الحيّ وصيّتي . ثم أنشأ يقول :

مَن مُبلغُ الأحياءِ أنّ مُهلهِلًا ... للهِ درُّ كُمُ ، ودَرُّ أبيكمُ

فقتلاه . ثم رجعا إلى الحيّ ، فقالا : إنّ مهلهلًا مات ، ودفنّاه بموضع كذا . قالوا : فهل وصّى بشيء ؟ قالا : نعم ، وأنشدا البيت . فلم يدر القوم ما معنى ذلك ، حتى أتت ابنته ، وكانت غائبة عند زوجها في بعض الأحياء ، فأنشدوها ما قال أبوها ، فقالت : إن أبي يخبركم أن العبدين قتلاه . ثم قالت : إنما أراد :

مَن مبلغُ الأحياءِ أنّ مُهلهِلًا ... أمسَى صَريعاً في الضَّريحِ ، مُجدَّلا

للهِ درُّ كُمُ ، ودَرُّ أبيكُمُ ... لا يَبرَحِ العَبدانِ ، حتى يُقتلا

وسأل عمرو الجنْبي امرأ القيس عن قول الأزدي :

عَجِبتُ لمولودٍ ، وليسَ لهُ أبٌ ... وذي وَلَدٍ ، لم يَلْدَهُ أبوانِ

فقال : أراد بالأول عيسى بنَ مريم ، وبالثاني آدمَ أبا البشر[1] .

وسئل رؤبة عن قول امرىء القيس[2] :

نَطْعَنُهم ، سُلْكَى ومَخلُوجةً ... كَرَّكَ لأمَيْنِ ، على نابلِ

فقال : حدثني أبي عن أبيه قال : حدثتني عمّتي — وكانت في بني

---

(١) الخزانة ١ : ٣٩٨ ، ونسب بعضهم البيت إلى عمرو الجنبي .

(٢) التنبيهات ص ٨٨ — ٨٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

دارم — قالت : سألتُ امرأ القيس وهو يشرب مع علقمة بن عبدة : ما معنى قولك « كركِ لأمين على نابل » ؟ فقال : مررتُ بنابلٍ ، وصاحبُه يناوله الريش ، لُؤاماً وظُهاراً . فما رأيتُ أسرعَ منه ولا أحسنَ ، فشبّهتُ به .

وقال أبو عبيد البكري [١] : أذرُع : نُضاف ، فيقال : أذرع أكبادٍ . وهي ضِلَع سوداء من جبل يقال له : أكباد . كذلك فسَّرتْ أمُّ شريكٍ بيتَ أبيها تميم بن أُبيّ بن مقبل :

أمسَتْ بأذرُعِ أكبادٍ ، فحُمَّ لها رَكْبٌ بلِينةَ ، أورَكْبٌ بساوينا

ومن خلال هذه النماذج تتّضح لنا الخيوط الأولى لتفسير الشعر منذ القديم . فلا غرو أن يكون ذلك الشعر قد نقلته الرواة ، منذ نشأته الأولى ، مشفوعاً بتفسير لبعض مفرداته ، وعباراته .

يضاف إلى هذا أن لكل نص شعري بيئة تاريخية ، أحاطت به ، فكانت الباعث على ولادته ، وتكوين بنيانه ، وتوجيه معانيه . فإذا ذهب الزمان بذلك لموت الشاعر ومن عاصره فَقَدَ النص كاشفاً أصيلاً لمحتواه ، وعُطِّلت جوانب أساسية من مراميه . ولذا كان لا بد أن ينهض الرواة بمهمة المؤرخ الذي يجمع مع الشعر الظروفَ والأخبار التي أوحت به [٢] . وليس بعيداً أن يكون رواة العصر الجاهلي قد حملوا ، مع الشعر ، بعض الأخبار التاريخية ، التي تهيىء الجو الكافي ، لتوضيح قسماته ، وصوره ومقاصده .

---

(١) معجم ما استعجم ص ١٣١ ، وانظر ديوان تميم ص ٣١٧

(٢) تاريخ الأدب العربي لبلاشير ١ : ١٠١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حتى إذا امتد الإسلام بهديه المبارك ، واتسعت رقعة البيئة العربية بالفتوح ودخول الناس في دين الله أفواجاً ، فكان فيها الأعاجم والمولدون ، اقتضى الأمر جهداً آخر ، لتقريب الشعر الجاهلي والإسلامي إلى الجمهور . ولهذا نلتقي في صدر الإسلام ، والعصر الأموي ، وصدر العصر العباسي بمن ينشد الأشعار القديمة في الجماعات والمجالس ، مُظهراً ما يثيره من إعجاب أو سخط (١) . فإذا عناصر جديدة تتخلل إنشاد الشعر، من نقد خاطف ، أو تفسير سريع لما يشتمل عليه ، من إشارات تاريخية ، أو كلمات غريبة ، أو معنى بعيد ، أو مسألة نحوية .

رُوِيَ (٢) أن ابن سيرين كان يبغض النحويين ، ويقول : لقد بغّض إلينا هؤلاء المسجدَ . وكانت حلقته إلى جانب حلقة عبد الله بن أبي إسحاق . وبلغ ابنَ أبي إسحاق أنه يعيب عليه تفسير الشعر ، ويقول : ما علمه بإرادة الشاعر ؟ فقال : إن الفتوى في الشعر لا تحل حراماً ، ولا تحرّم حلالاً . وإنما نُفتي فيما استتر من معاني الشعر ، وأشكل من غريبه وإعرابه بفتوى سمعناها من غيرنا ، أو اجتهدنا فيها آراءنا . فإن زللنا ، أو عثرنا فليس الزللُ في ذلك كالزلل في عبارة الرؤيا ، ولا العثرةُ فيها كالعثرة في الخروج عما أجمعت عليه الأئمة من سُنّة الوضوء ، وكرهته الجماعة من الاعتداء في الطُّهور .

فبلغ ذلك ابن سيرين ، فأقصر عما كان عليه من الإفراط في الوضوء . وأصبح إذا جاءه الرجل يسأله عن الرؤيا يقول : هات

(١) شرح ديوان أبي تمام ص ٨ – ٩ من مقدمة الناشر .

(٢) إنباه الرواة ٢ : ١٠٦ – ١٠٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حتى أظنّ لك . وأصبح ابن أبي إسحاق بعد أن بلغه كلام ابن سيرين، يقول : أظن الشاعر أراد كذا ، واللغة توجب كذا .

وكانت المجالس الأدبية والعلمية ، وكتب التفسير والتاريخ والأنساب، تعرض الكثير من الشعر القديم ، مستخدمة إياه في بسط موضوع ، أو تأييد حدث ، أو تفسير معنى . وكانت في عرضها ذلك تضطر إلى شرح بعض المفردات أو العبارات التي ترد في الشعر . وهـــذه أخبار متفرقة توضح ما رمينا إليه :

قال أبو علي القالي (١) : « أخبرني أبو بكر بن الأنباري عن أبيه قال : أتى أعرابي إلى ابن عباس ، فقال :

تَخَوَّفَني مالي أخٌ لي ، ظالمٌ فلا تَخْذُلَنّي اليومَ ، يا خيرَ من بَقِي

فقال : تَخَوَّفَك أي : تنقّصك ؟ قال : نعم ، قال : الله أكبر ! ﴿ أو يأخذَهم على تَخَوُّفٍ ﴾ أي : تنقّصٍ من خيارهم » .

وفي أخبار عُبيد بن شريّة : « قال معاوية : لله أنتَ ، يا عُبيد، فأين قول تُبَّع الذي قال على الباء :

أرقتُ ، وما ذاكَ بي مِن طَرَبْ ولكنْ تذَكُّرُ ما قد ذَهَبْ

فأنشد عبيد عند ذلك :

أرقتُ ، وما ذاكَ بي مِن طَرَبْ ولكن تَذَكُّرُ ما قد ذَهَبْ
نُجيزُ الأمـــورَ ، بسُلطانِنـــا لنَبلُغَ مُلْكاً ، بهِ ، مُغتَصَبْ

فقال معاوية : ويحكَ يا عبيـد ، من يعني بهذا البيت الذي يَغتصب المُلك ؟ قال : يعني رجلًا من ولد قحطان ، يسمَّى القحطاني ، اسمه على

(١) الأمالي ٢ : ١١٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ثلاثة أحرف ، تجمع له الأرض ، يدعو إلى الله . وذلك عند انقضاء ملك قريش (١) .

وها هو ذا كثيّر عزّة ، يحضر سمر يزيد بن عبد الملك ليلة ، فيكون بينهما ما يلي (٢) : قال كثيّر ليزيد : يا أمير المؤمنين ، ما يعني الشماخ بقوله (٣) :

إذا عَرِقَتْ مَغابنُها ، وجادتْ بدَرّتِها ، قِرَى حَجِنٍ ، قَتِين

فسكت عنه يزيد . فقال كثيّر : « بصبصْنَ إذ حُدِينَ » . وهو مَثَل يضرب في طاعة الجبان وخضوعه . ثم أعاد فسكت عنه يزيد ، فقال : « بَصبصنَ إذ حُدِينَ » . فقال يزيد : « وما على أمير المؤمنين ألاّ يعرف هـذا ؟ هو القُرادُ ، أشبهُ الدوابّ بكَ » . وكان كُثيّر قصيراً متقارب الخَلق .

وقال ابن سلاّم الجمحي (٤) : « حدثني أبو يحيى الضَّبّيّ قال : لقي ذو الرمة رؤبة فقال له ذو الرمة : ما يعني الراعي بقوله :

أناخا ، بأشوالٍ ، طُروقاً ، بخُبَّةٍ قليلًا ، وقد أعيَا سُهيلٌ ، فعَرّدا(٥)

---

(١) أخبار عبيد ص ٤٧٢ - ٤٧٨

(٢) طبقات فحول الشعراء ص ٤٦٠ - ٤٦١

(٣) يصف ناقته . والمغابن : الآباط وبواطن الأفخاذ . والدرة : رشح العرق والحجن : السبيء الغذاء . والقتين : القليل الدم واللحم . جعل عرق ناقته قرى للقراد الجائع الهزيل .

(٤) طبقات فحول الشعراء ص ٤٧٧ ، وانظر الأغاني ١٦ : ١١٤ ، والمخصص ١٠ : ١٧٣ ، واللسان (خبب) .

(٥) الأشوال : النوق التي شالت ألبانها . والطروق : المجيء ليلًا ، وعرّد : مال للغروب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فجعل رؤبة يقع مرة ههنا ، ومرّة ههنا ، إلى أن قال : هي أرض بين المُكلئة والمجدبة . وكذاك هي » .

وقال وهب بن منبّه [١] : « وفي تبّع شمر يرعش يقول أبو ذؤيب الهذلي ، بعد زمانه :

وعليها مَسرُودتانِ ، قَضاهما داودُ ، أو صَنعُ السَّوابغ ، تُبَّعُ

وهـذا البيت له في شعره الذي رثى به بنيه ، إذ قُتِلوا بذات الهجال [٢] » .

وفي السيرة النبوية أن حسّان بن تُبّان ملك اليمن قتله أخوه عمرو بتحريض من قادة جيش اليمن ، ليرتدّوا عن غزو العرب « فقال رجل من حمير [٣] :

لاهِ عَيْنا الذي رأى مِثلَ حسّا نَ ، قتيلًا ، في سالفِ الأحقابِ
قَتلتْهُ مَقاولٌ ، خَشيةَ الجيْـ ـشِ غَداةَ قالوا : لَبابِ لَبابِ
مَيْتُكم خَيرُنا ، وحيُّكمُ رَبٌّ عَلينا ، وكلُّكم أربابي

قال ابن إسحاق : وقوله « لباب لباب » : لا بأس لا بأس ، بلغة حمير » .

تلك نماذج متفرقة تمثل لنا الصورة التي كانت عليها الشروح الأدبية حتى منتصف القرن الثاني . ومنها يتبين للدارس أن الشرح لم يتعدّ تفسير كلمة غريبة ، أو عبارة مجازية ، أو إيراد المناسبة التاريخية للشعر .

حلب الدكتور فخر الدين قباوة

---

(١) التيجان ص ٢٤١

(٢) يلي ذلك قصة مطولة فيها مقتل أبناء أبي ذؤيب وتأبين الملوك وأبي ذؤيب لهم .

(٣) سيرة ابن هشام ١ : ٢٦ - ٢٧ ، وتاريخ الطبري ٢ : ١١٥ - ١١٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net